## المحاضر الثانية (2): الخصائص العامة للبحث الكيفي:

البحث الكيفي بشكل عام هو محاولة الحصول على الفهم المتعمق للمعاني والتعريفات التي يقدمها المبحوثون لموقف ما عند سؤالهم حوله، بدلا عن القياس الكمي. ويوجد هذا الاهتمام البحثي في مختلف التقاليد البحثية الكيفية المتعددة التي برزت مؤخرا في مجال البحث الاجتماعي بشتى اهتماماته وميادينه، من أهمها الفينومينولوجيا *(Phenomenology)* والاثنوجرافيا *(Ethnography)* والاثولوجية البشرية (دراسة السلوك البشري الطبيعي البشري) *(Human Ethology)* وعلم النفس البيئي *(Ecological Psychlogy)* وتاريخ الحياة *(Life History)* والتفاعلية الرمزية *(Symbolic Interaction)* والنظرية المجذرة *(Grounded Theory)* والاستدلاليات *(Hermeneutic)* وغيرها. وعلى الرغم من تداخلها وانطماس معالم حدودها؛ إلا إنّ لكل هذه التقاليد البحثية بؤرة اهتمام معينة تمثل محور اهتمامه.

**فالفينومينولوجيا:** مثلا تسعى لفهم التجربة المعاشة للأفراد ونواياهم في عالمهم المعاش، وتحاول الإجابة عن التساؤل عن ماذا يعني أن تكون للفرد تجربة ما، وذلك من خلال دخول الباحث للواقع المعاش للأفراد واستخدام الذات كأداة تفسيرية، انطلاقا من الايمان بأن الاعتقادات الذاتية لدى المبحوثين تتمتع بأولوية تفسيرية تفوق ما لدى الباحث من معرفة نظرية.

**وتذهب الاستدلاليات:** إلى أبعد من ذلك، حيث يسعى البحث الاستدلالي لاستخدام تفسيرات التجربة المعاشة للفهم الأفضل للأطر السياسية والتاريخية والثقافية الاجتماعية التي تجري فيها تلك التجارب، وهي أيضا، تتطلب من الباحث دخول الدائرة التفسيرية للفعل المقصود من خلال التجربة الذاتية.

**أما منهج تاريخ الحياة:** فيستمد كثيرا من مكوناته من كلا التقليدين الفينومينولوجي والاستدلالي إضافة إلى الاثنولوجيا، ويعتمد على أسلوب المقابلة المتعمقة للحصول على سرد متعمق لقصة حياة الفرد بما فيها من قضايا جوهرية ونقاط تحول.

**وتعتبر الاثنوجرافيا:** والتي تمثل الحجر الزاوية لعلم الانثروبولوجيا-أقدم هذه التقاليد البحثية وأكثرها شمولا في محاولتها تشريح الحياة اليومية للمجتمع المحلي، فتبين معانيها وأنماطها وكل ما يتعلق بها، مستخدمة وسائل بحثية متنوعة خلال فترة زمنية مناسبة يندمج خلالها الباحث في الحياة اليومية للجماعة المدروسة. ويعمل جميع الاثنوجرافيين من منطلق حقلي واحد، ولكنهم يختلفون كثيرا في بؤرهم التفسيرية، فبعضهم يرى الثقافة بمنظار مادي وضعي يلبس ثوب التطورية الجديدة، أو الوظيفية الجديدة أو الجدلية الجديدة التي تعتبر الثقافة مصدرا للنزاع والصراع من أجل السلطة. وهناك فئة أخرى من الاثنوجرافيين يركزون على الجانب الأيديولوجي للثقافة بدلا عن المادي أو الصراعي كالبنيويين وعلماء الانثروبولوجيا الرمزية والانثروبولوجيا الادراكية، حيث ينظرون إلى الثقافة باعتبارها معان ورموز مشتركة ما بين أفراد المجتمع، وهو ذات التوجه الذي ينتهجه مناصرو التفاعلية الرمزية في علم الاجتماع والتي تحاول فهم الطريقة التي يستوعب الأفراد من خلالها معنى التفاعلات الاجتماعية وكيفية قيامهم بتحويلها إلى رموز ذات معنى، فيتم تفسير معاني الكلمات والاشارات والعلامات للحصول على قواعد التفاعل الذي يتم من خلالها.

dzouz

وقد حاول بعض الباحثين الاثنوجرافيين تجنب استخدام ما لديهم من أطر نظرية عن المعاني والتعريفات في تفسير مظاهر الحياة اليومية في المجتمعات التي يدرسونها، متأثرين في ذلك بالدراسات الانثروبولوجية للثقافات البدائية التي هدفت إلى تبيان الاختلافات في السلوك الاجتماعي ما بين تلك الثقافات قبيل اندثارها. وقد انطوى ذلك المنهج على ملاحظات مفصلة أجراها الباحثون للتمكن من رؤية الكون من خلال أعين أفراد تلك الثقافات، وهو نفس المنهج الذي أُستخدم لدراسة الثقافات الفرعية في المجتمعات الغربية، والتي كان من أبرزها الدراسات الكلاسيكية لمدرسة شيكاغو وتابيعهم فيما بعد. وكما أشار دونز*(Downes)* وروك *(Rock)* فإن الهم الأول لمثل هذا البحث، هو فهرسة ووصف نظرة معينة للكون دون اقحام أي مشروع نظري خارجي عليها، فالناس لا يبنون حياتهم على المنطق السوسيولوجي أو تصورات الآخرين؛ بل لديهم وسائلهم الخاصة بذلك.

**غير أن الوصف المنظم للحياة اليومية** – وعلى الرغم مما ينتجه من صور شيقة-يبرر العديد من أوجه القصور عندما ينظر إليه من منظور البحث الاجتماعي الناقد، حيث لا يتم وضع معتقدات وسلوكيات الناس في المجتمع المدروس في إطار تاريخي أو بنائي، نسبة للاكتفاء بوصف مختلف أطر الوعي دون التطرق إلى كيفية وجودها. وهذا بدوره يؤدي إلى مشكلة أخرى، وهي الميول إلى اعتماد نظرة غير ناقدة لمعتقدات ووعي المبحوثين؛ مما ينتج عنه نسبية تحليلية تساوي بين الرؤى المتباينة نتيجة للنظرة السطحية غير المتعمقة. فالاكتفاء بالوصف المجرد لوقائع الحياة اليومية يولد انطباعا كاذبا، إذ يبدو وكأنه المنهج السوسيولوجي الموضوعي المجرد من الأحكام القيمية؛ لأن الباحث يبدو فيه محايدا يترك الفرصة للمبحوثين للتعبير عن تفسيراتهم الخاصة لظروفهم الاجتماعية. وتجنبا لاستغلال هذا التوجه من جانب الباحث واستخدامه لتبرير الأيديولوجية المهيمنة؛ فقد برز جيل جديد من الاثنوجرافيين الذين يحاولون مؤالفة التركيز التقليدي على المعاني والتعريفات الخاصة بالمعنيين عند دراسة ظاهرة ما. مع التبصر المستمد من النقد الاجتماعي بهدف الوصول الى معتقدات المبحوثين الذاتية لتحليلها بنائيا في إطار تاريخي أوسع.

إن اهتمام البحث الكيفي بالواقع المدروس ومحاولة سبر غوره بعيدا عن الافتراضات المسبقة أو الأطر النظرية الجاهزة؛ قد أدى إلى بروز النظرية المجذرة *(Grounded)* التي تمتد جذورها الفلسفية إلى المنهج الفينومينولوجي وتسعى لبناء نظرية صادقة تتم صياغتها بأسلوب استقرائي من تلك الظواهر المقصودة بالدراسة. وقد قام بتطوير النظرية المجذرة كل من جلاسير وستراوس في عام 1967. ففتحت آفاقا جديدة للإبداع البحثي في شتى فروع المعرفة الإنسانية. وقد أطلق عليها اسم المجذرة؛ لأنها تنبع من البيانات التي تستخدمها لدراسة ظاهرة ما، حيث يتم اكتشافها وتطويرها والتحقق من صحتها من خلال الجمع والتحليل المنظم لتلك البيانات؛ مما يعني وجود علاقة تبادلية بين عملية جمع وتحليل البيانات وعملية بناء النظرية.

وسعيا وراء الإحاطة بكافة جوانب الواقع الاجتماعي؛ فقد اهتم البحث الكيفي أيضا بالجانب العضوي للسلوك الإنساني من خلال منهج الاثولوجيا البشرية *( Human Ethology)* وهو منهج مبني على اسهامات لورينز *(Lorenw 1966)* وتنبيرجن *(Tinbergen.1955)*، عالمي الاثولوجيا الحيوانية، ويهتم بدراسة سلوك الانسان في إطاره الطبيعي عبر مرحلة زمنية معينة محددة من خلال تسجيل الأنماط المتعاقبة للسلوك الثابت، سعيا

للوصول إلى قاعدة عامة حول السلوك والتفاعل الإنساني. لقد اهتم منهج علم النفس البيئي أيضا بالسلوك الإنساني-هذه المرة من حيث تأثره بالبيئة التي تحيط به. فبينما يركز الاثولوجيين على السلوك ذاته، يهتم علماء النفس البيئي بالسلوك والبيئة من حوله التي يتم فيها.

إن اختيار هذه التقاليد البحثية لإجراء البحث العلمي الكيفي، يعتمد على عوامل كثيرة مثل الهدف العام للدراسة وطبيعة تساؤلها ونوعية بياناتها وما يتعلق بها من جمع وتحليل. كما أن عملية تقييم إفادات المبحوثين لا تقتصر فقط على التأكد من أنها صادقة، بل تتضمن أيضا دراسة العمليات التي شكلت آرائهم حول واقعهم الاجتماعي من خلال استخدام التحليل التاريخي والسوسيولوجي المتعمق. وهذه النظرة التحليلية الناقدة ليست بالأمر الهين؛ لأنها تتطلب إعادة تصور صدق المطلوب بصورة تختلف تماما عن تلك التي تتبناها الاعتبارات الكمية التقليدية أو التجريبية.

azouz